

في عصر الضعف، عانى النثر مثل الشعر من التهميش والإهمال، فكل منهما فقد بلاغته وزهده في الفروسية. ربما كانت مصيبة النثر أشدّ، لأن عدد المتطفلين عليه أكثر من الشعر. كانت النكبة تكمن في إنشاء المترسلين أكثر من إنشاء المصنفين. فقد استخدم المترسلون في كتاباتهم ألوان الشعر، فغلب عليها الخيال والمجاز، وصار سجعهم بدلاً للقوافي. لم ينقصه سوى الأوزان. وعندما صُبّ النثر في قالب الشعر، ضاقت أغراضه وتحدت موضوعاته، فأصبح صالحاً فقط للأشياء التي يطفو عليها الخيال الشعري مثل الوصف والرسائل ومقدمات الكتب والمقامات. أما المباحث العلمية والأدبية والتاريخية، فلم تكن مناسبة له، واستخدمها على مضض. أسف نثر المترسلين وجفت صناعتهم، وثقلت ألفاظهم، وقبحت محسناتهم. وفي هذا العصر، احتضرت البلاغة بين يديه، وحاول كتابه تقليد سابقهم في استخدام التورية والسجع والجناس، لأن صناعة الألفاظ كانت بمثابة ستر لعجزهم عن توليد المعاني واختراعها. لم يستقم الأمر لهم، فجاءت عباراتهم تتمطى متناقلة ومتثأبة. أما إنشاء المصنفين، فلم تشمل الصناعة اللفظية كل فنونه، لكنه لم ينج من التعقيد والتطويل. ثم دب الفساد في لغتهم كما دبّ في لغة المترسلين، فكد النثر أن يصبح عامياً، كما يظهر في قصص بني هلال وتاريخ ابن إياس وغيرهما. كانت حركة التأليف في العلوم والآداب في دولة المماليك محدودة لكثرة المدارس عندهم، وإقبال العلماء عليها، وانصرافهم إلى التأليف. لكن مصنفاتهم قلّ فيها الاستنباط، فجاءت في معظمها جمعاً وتحشية وشرحاً. من الذين اشتغلوا بالنحو ابن مالك الطائي، والفيتة المشهورة والكافية الشافية، ومنهم ابن هشام الانصاري وله «قطر الندى وبل الصدى»، ومنهم صاحب الأجرومية. ومن الذين اشتغلوا بتصنيف المعاجم اللغوية ابن منظور صاحب (لسان العرب)، ومنهم الفيروزآبادي وله «القاموس المحيط»، وغيرهما كثير. وكان حظ التاريخ حسناً، والنشاط له عظيماً، فظهرت فيه كتب جليّة. وكان للمغرب يد على فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع في مقدمة ابن خلدون لـ «كتاب العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر». ومن الذين اشتهروا في مصنفاتهم التاريخية ابن خلكان وله (وفيات الأعيان، وهو مصنف نفيس، ومنهم شمس الدين الذهبي وله (تاريخ الإسلام). وكذلك الجغرافيا، فإن أصحابها ما انفكوا يعانقون الرحلات في سبيلها. وأشهرهم القزويني وله (عجائب المخلوقات في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب. وابن بطوطة الرحالة المشهور وله كتاب تحفة النظائر، ويعرف برحلة ابن بطوطة. والمقريزي وله خططه التي بين فيها أقاليم مصر وأحوال سكانها، وأودعها من الأخبار والحوادث التاريخية طائفة حسنة. وكان للعلم الطبيعي دور هام في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري. واشتغل جماعة من العلماء بوضع الكتب الجامعة لشتى العلوم والآداب، كالنويري وله كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب»، ويبحث في الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي واللغة والأدب. والأبشيهي وله والمستطرف في كل فن مستطرف، ويشتمل على أدب وسياسة واجتماع وتاريخ وجغرافية وتاريخ طبيعي ونحو ذلك. ولما أدال الله العثمانيين ضعفت الحركة العلمية، فلم يكن للتصنيف والمصنفين شأن يُذكر. لكن برزت بعض الشهب التي تلوح الفينة بعد الأخرى، فتنبير سواد هذا الليل الدامس، ثم يتوارى شعاعها في الحجب الكثيفة، فيستبد الظلام. من هذه الشهب عبد القادر البغدادي صاحب (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) شرح فيه شرح الكافية في النحو وضمنه مباحث في التاريخ والأدب. ومنها السيد مرتضى الزبيدي صاحب (تاج العروس) يشرح فيه قاموس المحيط للفيروزآبادي. وعرف من المؤرخين المحبي وله «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، والمقري وله نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب». واشتهر من مؤلفي الكتب الجامعة بهاء الدين العاملي صاحب (الكشكول) فيه أدب ورياضيات وفلسفة وعلوم إسلامية. هذا غيضٌ من فيضٍ مما عُرفَ من آلاف التصانيف التي طبعت أو التي مازالت مخطوطة وهي تبرز الحركة التأليفية والموسوعية الكبرى في العصر المملوكي والعثماني. وما لا يُدرك كله لا يترك جله.